المعيار الاعتقادي للأخلاق في القرآن

[The Ethical Standards Prescribed in The Qur'an]

Zamakhsyari bin Hasballah Thaib[1]

[1] (Corresponding Author) Faculty of Islamic Studies, Dharmawangsa University, Medan – North Sumatera, Indonesia, e-mail: dr.zamakhsyari@dharmawangsa.ac.id.

ABSTRACT

This research is to understand the ethical tenets elucidated in the Quran and their impact on the formation of a virtuous society, starting with the nurturing of individuals who possess high moral standards. Morality is essential for the development, maintenance, and improvement of any community, as well as strengthening the connections between individuals within it. This study aims to clarify the moral principles delineated in the Qur'an by investigating its origin and characteristics. Additionally, it seeks to understand the moral standards that encompass both an individual's internal convictions and beliefs as well as their external conduct and demeanor. The method entails scrutinizing the ethical doctrines present in the Quran's verses. This study employs a thematic interpretation methodology that incorporates a deduction-based analytical descriptive technique. The study's main conclusions, "Morality in the Perspective of the Qur'an," focus on the essential steps and measures required to foster virtue and achieve happiness as a morally upright person. The Qur'an portrays morality as a practical necessity that demands immediate action rather than simply theoretical contemplation. The Qur'an asserts that the right moral principles are derived from divine revelation rather than from rationality or cultural conventions. The moral convictions that govern the sentiments of a Muslim revolve around fundamental principles such as tawhid (the unity of God), tawakkal (dependence on God), intention, and love.

Keywords: *Ethical principles, Ethical disposition, Ethical convictions, Thematic Interpretation*

ملخص البحث

ينطلق هذا البحث من أهمية معرفة معيار الأخلاق في القرآن ودورها في تكوين صلاح مجتمعٍ الذي يبتدئ من تكوين صلاح إنسانٍ، وتعتبر الأخلاق أمراً أساسياً في سير المجتمعات وصيانتها وتطويرها، وتقوية قوائم الإنسانيات فيها، فيأتي هذا البحث من أجل تسليط الضوء على معيار الأخلاق في القرآن من خلال فهم طبيعة الأخلاق وخصائصها في القرآن من جهة، واستنباط معايير الأخلاق، سواء ما يتعلّق بقلب الإنسان واعتقاده وما يتعلّق بسلوكه وصورته من جهة أخرى، وذلك من خلال استنباط العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأخلاق. وانتهج هذا البحث منهج التفسير الموضوعي بمقاربات وصفية تحليلية من خلال الاستقراء. وأهم نتائج هذا البحث: يتبيّن أنّ الأخلاق في نظر القرآن جوهره الحديث عمّا الذي يجب علينا أن نفعله لنكون أخياراً فضلاء ننعم بالسعادة، ويتحقّق بالعمل والتطبيق، حتّى يحقّق الإنسان ما يصبو إليه من خير وسعادةكما يتبيّن أنّ طبيعة الأخلاق في القرآن عمليةٌ، فهي أمر واجب النفاذ والنهوض بأعبائه وتكاليفه فوراً، ليست مجرّد نظريات قابلة للجدل، ويتجلّى أنّ معيار الأخلاق الصحيح في نظر القرآن هو الوحي، وليس العقل ولا العادة. ومعيارها الاعتقادي الذي يضبط وجدان المسلم هو التوحيد، والتوكّل، والنيّة، والمحبّة.

الكلمات المفتاحية: معيار الأخلاق، طبيعة الأخلاق، الأخلاق الاعتقادي، التفسير الموضوعي.

Received : 14-03-2024
Accepted : 21-05-2024
Published : 30-05-2024

How to Cite:
Thaib, Z. H. (2024). المعيار الاعتقادي للأخلاق في القرآن. RABBANICA Journal of Revealed Knowledge, 5(1), 105-123.

١. مقدمة

لقد بذل الفلاسفة منذ القدم جهوداً في وضع معيارٍ للسلوك الأخلاقي، إلاّ أنّهم انتهى بهم الأمر كأنّهم جماعة من العميان صادفوا فيلاً، وأخذ كلّ منهم يصفه بما لمسته يداه. لم يستطع أحد منهم إعطاء حلّ شاملٍ للمشكلة الخلقية، كما فشلوا في وضع معيارٍ بجوانب الإنسان المختلفة، ويساعد على توازنه الروحي والمادي (موسى، 1940).

وقد شهد نيكولا مالبرانش، وهو أحد أعلام الفلاسفة الحديثة الذي اشتهر بمذاهبه وهي الرؤية في الله، والسببية، والأنطولوجيا، على الإخفاق المستمر والحيرة التي لقيها الفلاسفة في جهودهم إلى وضع معيارٍ للأخلاق، حيث يرى بأنّ العقل العام هو دائماً واحد لدى الناس جميعاً، وأنّ النظام العام لا يتغير، ومع هذا فالأخلاق تختلف حسب الزمان والمكان (موسى،1943).

والجدير بالذكر أنّ المشكلة الأخلاقية لدى الإنسان منشأها طبيعة الإنسان المزدوجة من جسم وروح وعقل وإرادة، وعلاقات معقّدة ومتداخلة مع حاجات ورغبات متباينة ومتعارضة. ومن المعلوم أنّ النظريّات التي يكون مصدرها الإنسان لا تستطيع وضع قانون أو تشريع متكامل يقيم التوازن أو يوفّق بين طرفي تلك الطبيعة المزدوجة، وعلاقاتها المعقّدة (بدوي، 1967).

علاوة على ذلك، هناك نوعان من الخير يهدف التشريع الأخلاقي تحقيقها، وهما السعادة والفضيلة. فالسعادة مصدرها الشعور والوجدان، بينما الفضيلة مصدرها العقل والضمير. ولهذا، يسعى علم الأخلاق جاهداً في توحيد هذين النوعين من الخير كغاية قصوى للسلوك الإنساني (الشرقاوي، 1988).

لا يتصوّر أن تتحقّق الفضيلة إلاّ بالتخلّص من ضغط رغبات الإنسان وأهوائه، والتضحية بهما في سبيل الحقّ والواجب. بينما لا يمكن أن تتحقّق السعادة إلاّ بإشباع رغبات الإنسان وعواطفه، والبعد عن كل ما يؤلمه. بعبارة أخرى، تتحقّق الفضيلة بالجهاد والتضحية، بينما تتحقّق السعادة بالراحة والهدوء والاطمئنان. من هنا، نشأت المشكلة الأخلاقية، كيف يمكن أن يكون الإنسان سعيداً وفاضلا في وقتٍ واحدٍ؟

٢. مشكلة البحث

لقد غفل كثير من الفلاسفة الوضعية أنّ الإنسان، فوق ما في طبيعته من تعقيد وتركيب وتنوع، فهو كائن ينفرد بالإرادة، مما يجعل من الصعب التنبّؤ اليقيني بسلوكه واختياراته. كما أنّه ليس من صنع نفسه أو غيره من المخلوقات.

والجدير بالذكر، كثير من علماء الأخلاق يقولون:بأنّ الأخلاق علم معياري، بمعنى أنّه يضع القواعد العامة والثابتة، كنموذج مثالي للسلوك يجب الالتزام به في كلّ الأحوال. ولكنّهم في الوقت نفسه يقولون أيضاً بأنّ موضوع علم الأخلاق هو السلوك الإرادي من حيث ما يجب أن يكون (Majid, 1991). فيتّضح من ذلك أنّ علماء الأخلاق يوقعون أنفسهم في إشكال من الصعب إزالته، وهو لما كانت حياة الإنسان وحاجاته متنوّعة ومتجدّدة باستمرار، فكيف يمكنه التوفيق بين القاعدة التي وضعها علم الأخلاق للسلوك وبين واقع الفرد الذي يصدر عنه هذا السلوك؟

إزاء هذا الفشل، لم يبق للإنسان إلا التسليم بأنّ التشريع الأخلاقي ليس له إلاّ مصدر واحد، وهو الوحي. فالوحي وحده الذي يتوجه إلى النفس بأكملها، ويقدم إليها زاداً متكاملاً، يتغذّى منه القلب والعقل والجسد بدرجة متساوية. والتسليم بهذه الحقيقة في الحقيقة استواء مع الحق والعدل. فالله تعالى هو خالق الإنسان، وهو العليم بماضيه وحاضره ومستقبله، فهو الأحقّ وحده بأن يكون المشرع الوحيد لما يجب أن يكون عليه الإنسان، وهو أعلم بالسبل التي تحقق السعادة والفضيلة للإنسان في آنٍ واحدٍ.

إنّ تجاهل الإنسان بهذه الحقيقة وإعراضه عنها نابع من غرور الإنسان بمصيره وسعادته. وقد حذّرنا الله في كتابه العزيز من هذا الغرور، لأنّه يبهم في نفوس الإنسان معنى الخير والحق، والمصير الذي ينتظره من الإعراض عن سبله. قال تعالى: ﴿يٰٓاَيُّهَا الْاِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيْمِۙ ﴿٦﴾ الَّذِيْ خَلَقَكَ فَسَوّٰىكَ فَعَدَلَكَۙ ﴿٧﴾ فِيْٓ اَيِّ صُوْرَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَۗ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُوْنَ بِالدِّيْنِۙ﴿٩﴾ وَاِنَّ عَلَيْكُمْ لَحٰفِظِيْنَۙ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِيْنَۙ﴿١١﴾ يَعْلَمُوْنَ مَا تَفْعَلُوْنَ﴿١٢﴾ اِنَّ الْاَبْرَارَ لَفِيْ نَعِيْمٍۙ﴿١٣﴾ وَّاِنَّ الْفُجَّارَ لَفِيْ جَحِيْمٍۙ﴿١٤﴾ (الانفطار:14-6)

فانطلاقاً من أهمية معرفة معيار الأخلاق في القرآن ودورها في تكوين صلاح مجتمعٍ الذي يبتدئ من تكوين صلاح إنسانٍ، وتعتبر الأخلاق أمراً أساسياً في سير المجتمعات وصيانتها وتطويرها، وتقوية قوائم الإنسانيات فيها، فيأتي هذا البحث من أجل تسليط الضوء على معيار الأخلاق في القرآن من خلال فهم طبيعة الأخلاق وخصائصها في القرآن من جهة، واستنباط معايير الأخلاق، سواء ما يتعلّق بقلب الإنسان واعتقاده وما يتعلّق بسلوكه وصورته من جهة أخرى، وذلك من خلال استنباط العديد من الآيات القرآنية التي تتحدّث عن الأخلاق.

إنّ التساؤل الرئيس في هذه الدراسة: ما معيار الأخلاق في القرآن؟، ومن هذا السؤال تندرج وتتفرع تحته أسئلة أخرى، منها:

١. كيف يرى القرآن جوهر الأخلاق؟
٢. كيف كانت طبيعة الأخلاق في القرآن ؟
٣. ما المعيار الإعتقادي للأخلاق في ضوء القرآن الكريم ؟

من خلال البحث يتّضح أنّ هناك بحوثاً نظرية كثيرة قد تناول موضوع الأخلاق في ضوء القرآن، إلاّ أنّها بشكلٍ عامٍ تتناول هذا الموضوع بمقاربات مختلفة عن هذا البحث؛ حيث ذكرت تلك البحوث الأخلاق السلوكية

عموماً من دون تفصيل، ومن دون ذكر طبيعة الأخلاق في القرآن. ونذكر بعضاً من تلك البحوث العلمية، على سبيل المثال من غير حصرٍ ما يلي:

١. رسالة دكتوراه كتبه محمد عبد الله دراز، وترجمها عبد الصبور شاهين، من جامعة السوربون بفرنسا عام 1947تحت عنوان دستور الأخلاق في القرآن دراسة مقارنة للأسس النظرية للأخلاق في القرآن. وفي هذه الرسالة تطرق الباحث إلى العديد من المفاهيم الأخلاقية، ابتداءً من مفهوم الإلزام، المسئولية، و الجزاء، و النية، إلى مفهوم الجهد. وغلب في هذا البحث طابع فلسفي، يختلف عن هذا البحث.

٢. رسالة دكتوراه كتبه ريما شريف، من جامعة القاهرة بالقاهرة عام 2012م تحت عنوان الأسسالأخلاقية في العهد القديم مع مقارنتها بالقرآن الكريم. تركّز هذه الرسالة على الأصول الاعتقادية للعهد القديم التي تؤثر في الأسس الأخلاقية، وتركّز أيضاً في ضوء النظرية الأخلاقية القرآنية على الأسس الأخلاقية في العهد القديم. وهذه الرسالة لا تتناول غالب موضوعات هذا البحث.

٣. موسوعة علمية كتبه أحمد الشرباصي، وطبعها دار الرائد العربي ببيروت عام 1971م. تحت عنوان موسوعة أخلاق القرآن. تتكون هذه الموسوعة من ستّة مجلدات، وتتناول عن مجموعة من القيم الأخلاقية، إلاّ أنّها في جملتها تختلف عن طبيعة هذا البحث.

٤. رسالة ماجستير كتبه ماجد العصيمي، تحت إشراف الدكتور محمد خياط، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٤٢٨هـ/١٤٢٩هـ تحت عنوان الأخلاق العملية في القرآن الكريم. تطرقت هذه الرسالة إلى بيان مفهوم الأخلاق، وأقسامها في القرآن، كما تناول أخلاق المعلم المسلم، إلا أنها لم تركز إلى ما يركز به هذا البحث.

٥. رسالة ماجستير كتبه عبدالعزيز الشبل، من جامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة عام ١٣٩٦هـ تحت عنوان الأخلاق في القرآن. تتناول هذه الرسالة موضوعين رئيسين في البحث الأخلاقي هما التكليف، والقيم الأخلاقية في القرآن الكريم.، إلا أنّها لم تتطرق إلى موضوعات هذا البحث.

٦. رسالة ماجستير كتبه حامد سالم الحربي، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٤٠٤هـ1984/م تحت عنوان مدى تطبيق المدرسة للقيم التربوية المستنبطة من سورة الحجرات. تطرقت هذه الرسالة إلى بيان القيم التربوية المستنبطة من سورة الحجرات، وتركّز على قيم أخلاقية مستنبطة من تلك السورة، وهي لا تتناول غالب موضوعات هذا البحث.

٧. رسالة ماجستير كتبه عدنان عبد الرحمن الميمني، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام 1411هـ تحت عنوان التربية الأخلاقية في الآيات المكية والمدنية. تطرّقت هذه الدراسة إلى بيان موضوع القرآن الكريم والتربية الأخلاقية، وتناولت ذكر التوجيهات الأخلاقية في السور المكية وفي السور المدنيّة، وبيان التوجيهات الأخلاقية المشتركة. وفي تركّز هذه الدراسة مجملها على التربية الأخلاقية من خلال السور المكية والمدنية، دون التطرّق إلى غالب ما تناوله هذا البحث.

٣. نتائج البحث

بعد كتابة هذا البحث، يتوصّل الباحث إلى أهمّ النتائج الآتية:

١. يرى القرآن بأنّ الحديث عن الأخلاق جوهره الحديث عمّا الذي يجب علينا أن نفعله لنكون أخياراً فضلاء ننعم بالسعادة. ويتحقّق علم الأخلاق وثمرته بالعمل والتطبيق، والجانب النظري فيه إنّما هو وسيلة لتحقيق ما يجب أن يكون على أكمل وجه، وحتّى يحقّق الإنسان ما يصبو إليه من خير وسعادة.

٢. طبيعة الأخلاق في القرآن عمليةٌ، ويقدّم القرآن الأخلاق على أنّها أمر واجب النفاذ والنهوض بأعبائه وتكاليفه فوراً، ليست على أنّها نظريات قابلة للجدل، فهي الحلّ الأمثل لكلّ ما يعترض الإنسان من مشكلات تحول بينه وبين خيره وسعادته.

٣. معيار الأخلاق الصحيح في نظر القرآن هو الوحي، وليس العقل ولا العادة. ومعيارها الاعتقادي الذي يضبط وجدان المسلم هو التوحيد، والتوكّل، والنيّة، والمحبّة.

٤. منهج البحث

وانتهج هذا البحث منهج التفسير الموضوعي بمقاربات وصفية تحليلية من خلال الاستقراء، حيث تجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأخلاق ومعاييرها، ثم ترتب الآيات مكيها ومدنيها، وربطها بالموضوعات التي يريد الباحث الإجابة عن الأسئلة التي دار البحث حولها.

٥. النتائج والتحليل

٥,١. مفهوم الأخلاق في القرآن

الأخلاق جمع خلق (القسطلاني، 2004). والخلق في اللغة يطلق على السجية والمروءة والعادة والدين (الأصفهاني، 2009). وقد ورد كلمة خلق في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، 4 :68). فسّر ابن عباس كلمة خلق هنا بمعنى الدين (ابن الأثير، 1963). والأخلاق بهذا المعنى تكون عبارة عن نظام من العمل الذي يهدف إلى تحقيق الحياة الخيّرة ونمط من السلوك مع النفس ومع الغير، من حيث ما يجب أن يكون عليه هذا السلوك. يمكننا القول بأنّ الأخلاق ليست جزءاً من الدين فقط، ولكنّها جوهر الدين وروحه، فالدين في جوهره عبارة عن الواجبات التي يلتزم بها الإنسان تجاه ربّه وتجاه نفسه وتجاه غيره من المخلوقات. لذلك قال ابن القيم (2003): "الدين كلّه خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان."

كما وردت كلمة خلق في قوله تعالى أيضاً: ﴿إِنْ هٰذَا اِلَّا خُلُقُ الْاَوَّلِيْنَۙ﴾(الشعراء،26:13). وفسّر العلماء كلمة خلق في هذه الآية بمعنى العادة والسجية (ابن فارس، 1979). والأخلاق بمعنى السجية والعادة والمروءة تكون عبارة عن تأكيد الغاية من الفعل الخير وترسيخه في السلوك الإنساني حتى يصبح عادة، ويصدر من الإنسان دون تكلّف ولا مراجعة، وحتّى يكون الخلق للصورة الباطنة أشبه في استمراره ورسوخه بالخلق للصورة الظاهرة.

وقد عرّف العلماء الأخلاق بتعريفات اصطلاحية متنوعة. فابن مسكويه (2015) مثلاً عرّف الأخلاق بأنّها حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكرٍ ولا رويةٍ. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحرّكه أدنى شيء نحو الغضب، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرّب، وربما كان مبدأه بالروية والفكر ثم يستمرّ عليه أولاً فأوّل حتى يصير ملكة وخلقاً.

بينما الغزالي (1967) عرّف الخلق تعريفاً يتضمّن العنصرين، مع بيان معياره، حيث يرى الأخلاق بأنّها "عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية. فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الحميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً. وإن كان الصادر الفعّال القبيحة، سمّيت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً".

على الرغم من اختلاف التعريفين الذي قدّمها كلّ من ابن مسكويه والغزالي، إلاّ أنّ هذين التعريفين يلاحظ فيه الأساس النفسي للسلوك. كما أنّ هناك تعريفات أخرى يلاحظ فيها الجانب النظري للأخلاق، مثل علم الأخلاق قاعدة السلوك، علم الأخلاق علم الخير والشر، وغيره من التعريفات.

في عمومه، يعرّف علم الأخلاق بأنّه العلم الذي يبحث أو يجب أن يكون، كذلك في الغايات التي ينشدها السلوك الإنساني ويميّز النسبي منها عن المطلق، كما يبحث في أفضل الوسائل وأشرفها، الكفيلة بتحقيق الغايات التي يتحقّق بها كمال الإنسان وسعادته (Mariam, 2010). بعبارة أخرى، علم الأخلاق هو علم بالفضائل وكيفية تحصيلها ليتحلّى بها الإنسان، وبالرذائل وكيفية اجتنابها ليتخلّى عنها الإنسان (Salahaddin, 1983).

وفحوى هذا التعريف هو محاولة جادة لوضع إجابة مقنّعة عن سؤال بسيط ومحدّد، لكنّه على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية: ما الذي يجب علينا أن نفعله لنكون أخياراً فضلاء ننعم بالسعادة؟ وقيمة النظريات الأخلاقية أو الجانب النظري في علم الأخلاق يستمدّ قيمته وأهميته من مقدار الصدق والحقّ الذي يقدّمه للإجابة على هذا السؤال (عطية، 1990)

والجدير بالذكر، ينبغي أن لا يغفل ولو لحظة واحدة أنّ الإجابة على ذلك السؤال الأساسي يستمدّ حياته وحيويّته وقيمته بالتطبيق فحسب. فالإنسان لا يكون فاضلاً لمجرّد علمه بما يجب عليه أن يفعله، بل فضله في أن يعمل بما يجب عليه أن يفعله. بعبارة أخرى، عليه أن يعمل بما يعلمه ويؤمن بأنّه خير، لا يكتفي بمجرّد العلم بالخير والإيمان به فقط، دون تطبيق ما يعلم ويؤمن به (بدره اي، .1999)

من الواضح أنّ القرآن كثيراً ما يقرن الإيمان بالعمل الصالح في العديد من الآيات، منها قوله تعالى:

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١ (سورة المؤمنون، 11-1).

يلاحظ من تلك الآيات أنّ العمل شرط لصحّة الإيمان وقبوله، لأنّ المؤمن لا ينبغي أن يناقض قولُه فعلَه، فيقع تحت لوم القرآن الذي يستنكر بشدّةٍ انفصال الكلمة عن الفعل أو العلم عن التطبيق، كما في قوله تعالى: ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ (سورة البقرة، 44)، وقوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ (سورة الصف: 3-2).

علاوةً إلى ذلك، يتوعّد القرآن الذين لا يطبّقون العدل على أنفسهم وغيرهم بدرجةٍ متساويةٍ، فيقول الله: وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ (سورة المطففين).

يرى السعدي (2003) بأنّ تلك الآيات تدلّ على ضرورة التحلّي بالإنصاف والموضوعية حتّى في المناظرة. فمن المعلوم أنّ كلّ واحد من المتناظرين يحرص على الحجج التي تنصر رأيه، أشارت الآية إلى وجوب أن ينظر الكلّ إلى حجج خصمه الّتي لا يعلمها، فينظر في أدلّة خصمه كما ينظر في أدلّته هو.

فيتّضح من ذلك كلّه أنّ غاية علم الأخلاق وثمرته تتحقّق بالعمل والتطبيق، والجانب النظري فيه إنّما هو وسيلة لتحقيق ما يجب أن يكون على أكمل وجه، وحتّى يحقّق الإنسان ما يصبو إليه من خير وسعادة.

٥,٢. طبيعة الأخلاق في القرآن

الأخلاق في القرآن أخلاقٌ عمليةٌ. حينما يقدم القرآن لنا الفضائل والواجبات الأخلاقية، يقدّمها على أنّها أمر واجب النفاذ والنهوض بأعبائه وتكاليفه فوراً، ليست على أنّها نظريات قابلة للجدل، فهي الحلّ الأمثل لكلّ ما يعترض الإنسان من مشكلات تحول بينه وبين خيره وسعادته (دراز، 1973). كما أنّ أيّ تقصير في تطبيقها على الوجه الذي رسمه الوحي يفقدها فاعليّتها في تحقيق ما ترمي إليه من إسعاد الإنسان في دنياه وآخرته.

بيّن القرآن أنّ دور الإرادة الإنسانية حيال الأخلاق هو الإخلاص التّام في تطبيقها على الوجه الذي وردت فيه، وعدم السماح لأيّ مصدر آخر مزاحمة الوحي، كسلطان وحيد لا يجب أن تدين الإرادة بالطاعة والولاء إلاّ له (Kevin, 2002). فهذا هو الأساس الذي تنبني عليه الأخلاق في القرآن، ويتّضح هذا من خلال قوله تعالى: ﴿...اَلَا لَهُ الْحُكْمُ...﴾(سورة الأنعام، 62 :6)، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهٖ﴾ (سورة الرعد، 13: 41)، وقوله تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا (سورة النساء، 65 :4)، وغيرها من الآيات.

من أمعن النظر في القرآن يجد أنّه يقدّم لنا تلك الأوامر في ثوب من الإغراء والترغيب وبشتّى الوسائل تحفزنا على الاستجابة لها والتنافس في أدائها على الوجه الأكمل، فلا نكاد نجد واجباً في القرآن إلاّ وهو مصحوب بمسوّغات قبوله ومبرّرات أدائه، إلاّ أنّه يجب أن لا يفهم أنّ هذه المسوّغات هي العلّة على التنفيذ، وإنما العلّة في التنفيذ يجب أن تكون قبل كلّ شيء الأمر الإلهي (James, 1961)

فعلى سبيل المثال، حينما أمرنا الله بالصلاة في القرآن، وهي أخصّ ما يطلب من العبد شكراً لنعم خالقه، يأمرنا بها مقترنة بمسوّغها، من آثارها الحميدة التي تعود على الفرد والجماعة، فيقول: ﴿إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت، 29:45).

يرى السعدي (2003) بأنّ من أقام الصلاة بخشوع، وأتمّ أركانها وشروطها، استنار قلبه وتطهّر، وازداد يقينه، وقوى إرادته في الخير، وقلّ ميوله إلى الشرّ، فمن حافظ صلاته بهذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وحين يأمرنا بالزكاة، يسوّغ أمره بآثارها الطيبة في نفوسنا وفي بنياننا الأسري والاجتماعي، وحتّى في تسميته لهذا الواجب ما يعطى كل المعاني التي يقصد تحقيقها منه، فبذل المال فوق ما فيه من تراحم وتعاون وتقوية لأواصر المحبّة الاجتماعية تطهير للنفس من رذيلة البخل والشح وتزكية لفطرتها الخيرة (Fadlo, 1980)، ومن هنا أردفها بالصلاة في قوله تعالى: ﴿وَاَقِيْمُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتُوا الزَّكٰوةَ﴾ (البقرة، 2: 110). ثم يبين أثرها فيقول: فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (التغابن، 64: 16). بل يشدّد القرآن الوعيد للمقصّر في أدائها، فيقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ (التوبة، 9: 34).

أمّا الصوم فواجب، يسوّغ قبوله ما فيه من شحذ الإرادة، وتمرسها على الإذعان للحق والصبر على المكاره في سبيل المثل الأعلى، والتخلّص من سلطان الهوى والأنانية وحبّ الذات. كما أنّ فيه معنى التراحم والتواصل الوجداني بين طبقات الأمّة وتحقيق الإخاء الإنساني. ومن هنا كان الصوم مدرسة تربّت فيها كلّ الأمم القويّة (Fadlo, 1980). وهذا ما يبشير إليه القرآن في تقديمه لهذا الواجب حين قال تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ (البقرة، 2: 183). ولهذا، ليس مصادفة أن يكون الوقت الذي فرض لأداء هذا الواجب أنسب الأوقات التي يتلقّى فيها الإنسان تشريع الخير والحقّ والعمل به، فيقول: شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴿١٨٥﴾ (البقرة:185)

بينما الحجّ، فهو الجامع لأنواع الواجبات الإسلامية وثمارها، والنموذج الذي يتحقّق فيه الزكاء والطهر الإنساني والاجتماع الديني. فالحجّ مقارنة بغيرها من العبادات الإسلامية الأخرى يعتبر طوق النجاة الذي يحمل الإنسان إلى الشاطئ الآمن، وهو ختام الأمر الذي به تمام الإسلام (Fadlo, 1980)، حيث قال تعالى: ٱلْيَوْمَ يَئِسَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (المائدة،3).

حينما يقدّم القرآن واجب الحجّ، فقدّمه مقترناً بنفع الإنسانية وصلاحها مطلقاً، لتستوعب كلّ آفاق الخير الإنساني، تنبيهاً إلى أهمية القيام بهذا الواجب وما فيه من خيرً غير محدودً، حيث قال تعالى: لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ۝٢٨ (الحج، 28 :22)

أوضح الطنطاوي (1997) أنّ من مظاهر منافع الحجّ الدينية: غفران ذنوب الحجّاج، وقبول دعواتهم، و إصابة مرضاة الله. بينما من مظاهر منافع الحجّ الدنيوية: اجتماعهم وتعارفهم في ذلك المكان الطاهر، ومن ثمّ تعاونهم على البرّ والتقوى، وتبادل المنافع عن طريق التجارة فيما بينهم، وغير ذلك.

من أمعن النظر في تشريع الحجّ، يجد أنّه يحتوي على امتداد لا نهائي من الخيرات والمنافع التي أطلقها القرآن من غير حصر، أو تحديد بزمان أو مكان. كما أنّ الحجّ هو المرآة التي تعكس الصورة الكاملة للاجتماع الديني شكلا وموضوعاً. وقد صوّر لنا القرآن هذا الأمر في قوله تعالى: وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ۝٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ۝٢٩ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ (الحج، 30-27).

إنّ هذا المنهج الذي اتّبعه القرآن الكريم في بيان طبيعة الأخلاق لم يقتصر على بيان الأوامر الشرعية فحسب. نجد أنّ هذا المنهج واضح جلي كذالك أثناء البيان القرآني للنواهي الشرعية، كتحريم القتل، وتحريم الزنا، وتحريم شرب الخمر، و غيرها من المناهي الشرعية (الجابري،2001).

حينما نهانا القرآن عن القتل، بيّن لنا الأثر المدمّر لتلك الجريمة على الوجود الإنساني ذاته. قال الله تعالى في سورة المائدة الآية 32: مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ۝٣٢. ولهذا ترتّب على من فعل هذه الجريمة إهدار حياة فاعلها في الدنيا من أجل حفظ الحياة والأمن للناس جميعاً، حيث قال الله تعالى: وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ۝١٧٩ (البقرة :179).

أمّا في الآخرة، فالقاتل الذي فعل هذه الجريمة الشنيعة بعمد ينتظر مصيراً تعيساً، حيث قال تعالى: وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا۝٩٣ (النساء، 4: 93)

حينما ينهانا القرآن عن الزنا والاقتراب منه، فالقرآن يوضّح لنا نتائجه السيّئة وآثاره المدمّرة لنسيج الأسرة والمجتمع، فيقول تعالى: وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ (الإسراء، 32 :17).

وحينما يحذّرنا القرآن عن الخمر والميسر وغيرها من الرذائل، أعطى لنا القرآن مسوّغاً لهذا النهي، فقال تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ (المائدة، 91-90 :5).

إنّ المرء ليزداد إعجاباً وإكباراً للمنهج الذي رسمه القرآن في العبادات التعاملية بين الإنسان ومن حوله، ابتداءً من علاقته مع والديه. لم يكتف القرآن بالأمر على صلة الرحم من الولد لوالديه، بل أكّد على استحقاقهما التقدير والاحترام من خلال ذكر أفضالهما السابقة على الولد وما بذلاه في سبيل الولد، حيث قال تعالى: ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ (الإسراء، 24-23 :17).

حينما دعانا القرآن إلى الاعتصام بالحقّ والتمسّك به، سوّغ لنا القرآن هذا الأمر بما تحقّقه هذه الدعوة من الاجتماع السوّي، والمضارّ التي ترتّب على عدم الاستجابة لتلك الدعوة. قال الله تعالى: وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (آل عمران،103).

يرى السعدي (2003) أن الله أمرهم في تلك الآية بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وذلك لأنّ صلاح الدين والدنيا مبنيّ على ائتلاف قلوب المؤمنين، وكما أنّ التمكّن في كلّ أمر من الأمور مرهون باجتماعهم، وبالإضافة إلى أنّ حصول المصالح لهم ما لا يمكن إحصاؤها من التعاون على البرّ والتقوى متوقّفة على ائتلافهم، في جانب آخر يظهر اختلال النظام وانقطاع الروابط ووقوع الضرر العام كلّ ذلك بسبب الافتراق والتعادي فيما بين المؤمنين.

وحينما أمرنا القرآن بالعفو والإحسان، وضّح لنا آثاره المحمودة التي تعود علينا، فيقول تعالى: وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (فصلت، 34 :41). وحينما أمرنا القرآن بواجب الدعوة إلى الإسلام، اتّسم هذا الأمر القرآني بطابع أخلاقي رفيع تشيع فيه روح المحبّة والإخاء، حيث قال تعالى: ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ (النحل، 125).

يرى القرطبي (2006) بأنّ هذه الآية مكّية، نزلت في وقت الأمر بمهادنة قريش، حيث أمر الله رسوله أن يقوم بالدعوة إلى الله بتلطّف ولين من غير خشن ولا عنف. فهذه الآية محكمة غير منسوخة لعصاة المسلمين، وهي منسوخة بآية القتال في حقّ الكافرين.

وضّح لنا القرآن أنّ الالتزام بالتشريع الإسلامي في الأخلاق ليس مجرّد أساس السعادة في الآخرة فحسب، وإنّما هو مفتاح الأمن والإخاء والسعادة في الدنيا، حيث قال تعالى: وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ (النور، 55).

وهكذا يشيع القرآن على نسقٍ واحدٍ في تقديمه للواجبات، يكاد يكون مطّردا في كلّ أمر ونهي. فعلى الرغم من أنّ القرآن يقدّم لأوامره ونواهيه مسوّغات قبولها، إلاّ أنّه لا يقدّم لنا نظريّات أخلاقية قابلة للجدل والمناقشة، كما هو الحال عند النظريات الوضعيّة، وإنّما يقدّم القرآن لكلّ سؤالٍ أو مشكلة حلاً وجواباً قاطعاً ومحكماً. وهذا الحلّ يفرض نفسه على الضمير الفردي والجماعي، لصلاحيته للأدنى والأعلى بدرجةٍ متساويةٍ. كما أنها إجابة فوقية، تهدي العقل ولا تستهدي به، ترشد الفؤاد ولا تستشرد به. ومن هنا كانت واجبة للتنفيذ دون جدلٍ أو مناقشة (موسى، 1942).

٥,٣. المعيار الاعتقادي للأخلاق

إنّ الأخلاق في نظر القرآن معيارها الصحيح هو الوحي، وليس العقل ولا العادة. فصاحب الأخلاق بمعياره الصحيح دائم التسليم والإذعان لكلّ ما جاء به من أمرٍ أو نهيٍ. وهذا المعيار هو الذي تقوم به حركة التاريخ البشري وتقدّمه منذ بداية الوجود البشري إلى قيام الساعة (Darāz, 2008).

لقد صوّر القرآن أنّ الأخلاق في الإسلام نظام عام وشامل، يتضمّن في داخله معايير أخلاقية متعدّدة، منها ما يتعلّق بقلب المسلم واعتقاده، والأسس التي تقوم عليها بناء الأخلاق. ومنها ما يتعلّق بالسلوك وصورته (Hadi, 1959). وفي هذا البحث سنتناول المعيار الاعتقادي لأخلاق الإنسان دون التطرّق إلى معيار الأخلاق فيما يتعلّق بالسلوك بشكل تفصيلي.

هناك عدّة المعايير الصحيحة للأخلاق فيما يتعلّق باعتقاد الإنسان، وهي:

أولاً: التوحيد

يرى القرآن أنّ موقع التوحيد في بنية الأخلاق كموقع القلب من الجسد، وموقع المركز من الدائرة. ومن ثمرة التوحيد أن يتحرّر الإنسان من الخضوع للمعايير الذاتية مهما كان سلطانها. ومن خلال التوحيد أيضاً، يتفرّغ قلب الإنسان من الأهواء والميول إلى الدنيا، فيمتلئ قلبه بنور الحقّ.

وقد أكّد القرآن في كثير من الآيات على أنّ التوحيد هو المعيار، فيحث الناس على الالتزام به والعمل على أساسه، كما سوّغ القرآن مسوّغات كثيرة لقبولها عقليا وقلبياً. تارّة دعا القرآن إلى التوحيد ببيان أنّه ليس هناك سوى إله واحد، فقال تعالى: لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا (الأنبياء، 22).

وتارة بين القرآن بأنّ علم الله قد أحاط بكلّ شيء، كما قال تعالى: وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ (الأنعام، 59).

وضّح القرآن بأنّ الحرية في أتمّ صورها، لا يمكن أن تتحقّق للفرد أو المجتمع إلاّ بالتوحيد الخالص، وإخلاص العبودية لله. كلما ازداد الفرد إخلاصاً في توحيد الله وعبوديته، كلّما ازدادت حريته من سلطان المعايير الذاتية أيًّا كان مصدرها وقيمتها. وهذه الحرّية الحقيقيّة لا ينالها المرء بالمال، أو الجاه، أو الولد، أو المجتمع. فمن خلال التوحيد يكون سلوك الفرد وحكمه على الأمور محكوماً بمعيار موضوعي غايته الحقّ والخير.

ثانياً: التوكل

ونعني بالتوكّل هنا أن يسعى الفرد ما وسعه الجهد في حدود أوامر الله ونواهيه، ثمّ يترك النتائج المترتّبة على سعيه إلى الله تعالى. والتوكّل الذي هو ثمرة التوحيد هو معيار إيمان المسلم بقضاء الله وقدره. كما أنّه دليل على فهم الإنسان وإدراكه الصحيح لقدره وحدود قدرته.

إنّ المتوكّل على الله يكون قلبه وروحه ممتلئاً بالسلام والأمن والرضا، فيصير حاله بين العزم والإصرار الرفيع عند النجاح. فهو لا يعرف الفشل ولا اليأس حينما لم يتحقّق النتائج التي كان يرجوها بسعيه، بل يزداد إصراراً وعزماً على ترشيد وسائله ومراجعة موقفه من جديد. وحينما يتحقّق ما كان يرجو، فهو لا يتكبّر ولا يغترّ، بل كان شاكراً لفضل الله ونعمه، كما أنّ نجاحه دعاه إلى مزيد من التواضع الذي يزيد همّته في تحصيل الكمال والتقدّم (Hadi,1959).

إنّ التوكّل على الله معيارٍ دقيقٍ يقيس به المسلم نقاء سريرته وقوّة يقينه وثقته بالله وإخلاص القلب له دون غيره من الأسباب. وبجانب ذلك، إنّ التزام التوكّل يحقّق في سلوكنا الأخلاقي وفي أنفسنا النتائج الآتية:

١. انفكاك الربط بين العمل ونتائجه. إنّ الفصل بين العمل كسبب وبين النتيجة كمسبّب ضروري من أجل أن يكون إيمان العامل بالله أعظم من إيمانه بنفسه. فالنتيجة ليست ثمرة قدرته ومحصلة إرادته وحدها، بل هي صادرة من إرادة الله وحدها.
٢. إنّ التوكّل يعكس أثراً إيجابياً وطيباً في نفوسنا، ثم في طريقة أداء عملنا، ثمّ على موقفنا ونظرتنا إلى المستقبل. إنّ من اعتمد على نفسه في الوصول إلى أهدافه، دون التوكّل على الله يحلّ في قلبه القلق مع أوّل خطوة يخطوها نحو أيّ هدف. فكثيراً ما يتساءل قبل القيام بعمل: هل سيتمّ جهدي أو يفشل؟ وإذا تمّ فإلى أيّ حدّ سيكون النجاح؟ وكذلك بعد العمل القلق لا يفارقه أيضاً. إذا كانت النتيجة متكافئة مع جهده يقول:

أمّا كنت كسبت أكثر؟ وإذا جاءت النتيجة أقلّ مما يرجو، فهو لا يعود على نفسه باللوم، وإنّما يصبّ سخطه على الحظّ والمقادير.

هناك آيات قرآنية عديدة تدعو الناس إلى التوكّل وتحثّ عليه كمعيار لإيمان المسلم وأخلاقه، منها قوله تعالى: وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (المائدة، 23). وقال تعالى أيضاً: وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا (الطلاق، 3-2).

ثالثاً: النية

النيّة في اللغة تعني القصد والإرادة. ومعناها الاصطلاحي أن يتّجه القلب إلى اختيار أمر دون آخر بعزم ثابت لا يحول بينه وبين النفاذ إلاّ عائق خارج عن الإرادة. والنيّة معيار لتحديد قيمة العمل والحكم عليه بالخير أو الشرّ، لأنّه إذا كانت نيّة العامل بعمله وجه الله كان العمل خيراً، واستحقّ صاحبه المدح والثواب. أمّا إن كانت لغير الله كان العمل على قدر مانوى من أجله. إن كان شراً كانت النيّة شرّاً، وكان صاحبها شرّيراً يستحقّ الذّم والعقاب. أمّا إن كان في أمر مباح، كان عملاً عادياً لا يستحقّ تقييمه بمعيار الخير والشر(John, 1968).

إنّ السلوك الإرادي يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام بحسب نيّته:

١. الطاعات، وهي مرتبطة بالنيّة في أصل صحّتها، لأنّ النيّة شرط لصحّة أداء الواجبات الدينيّة التي لا تكون كاملة إلاّ إذا قصد بها المسلم وجه الله، وكانت خالصة لله دون غيره. فنجد مثلاً أنّ إعطاء المال للفقير في حدّ ذاته خير بالنسبة إلى الفقير وفي نظر الشرع الذي أمر به. وهذه هي صورة الفعل. أمّا روح الفعل فهو نيّته فيه، إن كانت خالصة لله، كان الفعل خيراً للفقير وخيراً لفاعله، مؤدّياً إلى نقاء نفسه وصفائها. وكلّما تعدّدت نيّات الخير تضاعف الخير في الواجب الإسلامي، كأن ينوي لسدّ حاجات الفقير، وحفظ كرامته الإنسانية، ووقايته من الانحراف، ونزع الحقد والكراهية من نفسه، وغير ذلك من الأغراض الحسنة (الغزالي، 1963)، حيث قال تعالى: مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة، 261).

٢. المعاصي، وهي لا أثر للنية الطيّبة في تغيير حكمها، مثل من بنى مدرسة أو مسجدا أو مستشفى من مال حرام أو على أرض مغصوبة. ففي هذا القسم لا أثر للنيّة الطيّبة من تغيير حكمها من كونها معصيةً، بل إنّ قبحها يتعاظم لاتّخاذ الشرّ وسيلةً للخير على خلاف ما أمر به الشرع، وذلك لأنّ الفاعل هنا لا يخلو من أمرين: إمّا أنّه عرف مقصود الشرع ومنهجه، ثمّ أحل قصده مهما كان حسنا في نظره محلّ قصد الشرع، فهو معاند لكونه قد أحلّ المعيار الذاتي محلّ المعيار الإلهي كأساس لسلوكه الأخلاقي. وإمّا أنّه

يجهل مقصود الشرع وأمره ونهيه، فهو عاص بجهله هذا. فمن قصد الخير بمعصية من جهل فهو غير معذور ما دام الرجوع إلى الشرع ميسّر له وفي استطاعته (الغزالي,1963).

٣. المباحات، وتعني كلّ الأمور التي لم يرد فيها أمر ولا نهي من الشرع، فإن حضرت فيها نيّة أخذت حكم النيّة فيها. فمن قام بها بنية الخير مراعاة لوجه الله أصبحت أفعالاً أخلاقيةً وطاعات يثاب فاعلها (الغزالي، 1963). كمن تناول الطعام مثلاً، إذا تجاوز المسلم الغرض الطبيعي المباح من تناول الطعام كإشباع الجوع وحفظ الصحّة، وقصد به تقوية للجسم من أجل النهوض بالتكاليف الشرعية على أكمل وجه كان الطعام الذي هو أمر مباح وسلوك عادي عملاً أخلاقيّاً. وهذا الطعام نفسه إذا قصد به التقوّي من أجل الاعتداء على الناس وإذلالهم ينقلب من عمل مباح إلى معصية. وهناك آيات قرآنية كثيرة توضّح أثر النيّة كمعيار لتحديد نوع العمل وصفته، منها قوله تعالى: وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ۝٥ (البينة، 5). وقال الله تعالى:فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا۝١١٠ (الكهف، 110).

وفي أحيان كثيرة من الصعب بمكان تقسيم السلوك بين الطاعة والمعصية والمباح، لأنّ البواعث قد تتداخل بعضها ببعض، فمن الصعب على وجه التحديد أن يتبيّن هل باعثه على الفعل شخصي أو إنساني أو ديني أو هم جميعاً؟ فيتوقّف عليها بيان ما في نفوسنا من خير أخلاقي أو زيف أو رياء.

لقد عالج هذه المسألة الفائقة الإمام الغزالي (1963)، فهو يرى أن على الفرد الذي يتنازع إرادته باعث الأخلاق، وباعث المصلحة، ويختلط عليه الأمر في تحديد أيّهما المحرّك الأصلي في دفعه إلى العمل، عليه أن يختبر أثر كلّ باعث على حدة، كأنّه هو الباعث الوحيد على الفعل، ثم يحلّل علاقته بالباعث الآخر. فالعلاقة لن تخرج عن ثلاثة أحوال، إمّا المرافقة، وإمّا المشاركة، وإمّا المعاونة. فالمرافقة تعني أن يجتمع باعثان، كلّ منهما كاف في إتمام العمل. والمشاركة تعني أن يجتمع باعثان كلّ واحد منهما غير كافٍ بمفرده في إتمام العمل ولكنّ الفعل يتمّ باجتماعهما. بينما المعاونة فتعني أن يكون أحد الباعثين كافياً بمفرده في إتمام العمل و الآخر ميسّر فقط في الأداء.

ما سبق بيانه في أعلاه هي الصور الثلاث لاشتراك الباعث، وعلى الفرد أن يقيس شدّة باعثه الأخلاقي بالنسبة للباعث الآخر. فإذا تساوت الكفّتان، أي الباعث الأخلاقي مع الباعث الشخصي، في أداء العمل كان الفعل محايداً لا يوصف بالأخلاقية وعدمها. أما إذا رجحت كفّة الباعث الأخلاقي على غيره من البواعث كان في الفعل من القيمة الأخلاقية بقدر شدّة باعثه وقوّته على الباعث الآخر. وفي مقابل ذلك، إذا رجحت كفّة الباعث الشخصي فقد الفعل قيمته الأخلاقية.

وبالمثال يتّضح المقال. نضرب مثالاً، لو أنّ أحداً سألك مساعدةً، ونفترض أنّه يستحقّها بوصفين، هما الفقر وصلة القربى، فقدّمت إليه ما طلبه من مساعدة. لكي تعرف قيمة عملك أخلاقيّاً، لا بدّ أن تسأل نفسك: هل كان باعثك على إعطاء المساعدة له فقره أو قرابته، فعليك أن تنظر إن تقدّم إليك فقير أجنبي، أو قريب موسر،

فإن وجدت عندك نفس العزم والسرور بإعطاء المساعدة لهما كان ذلك دليلاً على أنّ لكلّ باعثٍ منهما، أي باعث القرابة والفقر، على نفسك سلطاناً متكافئاً مع سلطان الباعث الآخر. وهذه هي صورة المرافقة في البواعث.

ولكن إذا لم يظفر الغني القريب أو الفقير الأجنبي بإحسانك كان ذلك دليلاً على عدم جدوى أيّ من الباعثين منفرداً في تحريك عزيمتك على الفعل. وهذه هي صورة المشاركة. أمّا إذا وجدت الباعث الأصلي هو الفقر والحاجة، وأن الباعث الآخر عامل ميسّر فقط دون أن تطيق منفرداً تحريك نفسك وإثارة همتك، فهذا دليل على أن الباعث الأوّل متفوّق وله السيادة، وأما الآخر فأمر ثانوي لا يؤثر اختفاؤه في إتمام الفعل، فهذه هي صورة المعاونة.

وحينئذٍ فإن تساوى الباعثان، أي الواجب والمنفعة، أو الدّيني والشخصي، يبطل الشحنة الأخلاقية في الفعل لتعادل الإيجاب والسلب فيه. أمّا إذا رجح الباعث الأخلاقي كان له من الفضل الأخلاقي بقدر الفضل في قوّته على الباعث الآخر. وفي مقابل ذلك، يكون الفعل قبيحاً بقدر الفرق في القوّة بين الباعثين، ولكنّه لا يبلغ قبح الفعل الخالي من كل باعث أخلاقين لأن اقلّ ميلٍ في إرادتنا إلى الخير يحدث قدراً مساوياً من الخير في نفوسنا. وهذا في حدّ ذاته دليل على امتياز الأخلاق الإسلامية عن غيرها من الأخلاق الوضعية.

وذكر حجّة الإسلام أو حامد الغزالي (1963) في هذا الشأن أنّ العمل إذا لم يخلص فاعله النيّة لوجه الله بل خلط عمله بقصد الرياء أو حظوظ النفس، هل يقتضي ثواباً أم يقتضي عقاباً أم لا يقتضي شيئاً أصلاً؟ إذا لم يقصد من عمله إلاّ من أجل الرياء فهو قطعاً يقتضي العقاب. وأما إذا خلص عمله لوجه الله فهو يقتضي الثواب. اختلف الناس إذا كان الفاعل خلط بين الإخلاص والرياء، وظاهر الأخبار تدلّ على أنّه ليس له ثواب، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه. إلاّ أنّ الغزالي يرى في المسألة أن ينظر إلى قوة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي فالباعثان تتقاومان وتتساقطان فيكون العمل لا له ولا عليه. ولكن إذا كان باعث الرياء أقوى فالعمل غير نافع، بل هو مضرّ ومفضي للعقاب. وإن كان العقاب فيه أخفّ وأقل من عقاب العمل الذي تجرد للرياء، وليس فيه قصد التقرّب. وإذا كان باعث التقرّب إلى الله أقوى فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الديني. وهذا لقوله تعالى:فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَّرَه ﴿٧﴾وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَّرَه﴿٨﴾ (الزلزلة،8-7)، ولقوله تعالى: ﴿اِنَّ اللّٰهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَاِنْ تَكُ حَسَنَةً يُّضٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ اَجْرًا عَظِيْمًا﴾(النساء، 40 :4). فلا ينبغي أن تضيّع نية الخير، بل إن كانت غالبةً حبط منه القدر الذي يساويها وبقيت زيادة، وإن كانت مغلوبةً سقط بسببها شيء من عقوبة النية الفاسدة.

علاوة إلى ذلك، أباح القرآن بصراحة اشتراك الباعث الشخصي بشرط أن يكون الباعث الديني هو أساس الفعل، وأنّ هذا الاشتراك لا يقلّل من قيمة العمل شيئاً، حين أذن الله للحاجّ ابتغاء منافع أخرى في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَنْ تَبْتَغُوْا فَضْلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة،198).

اتّضح لنا بعد هذا البيان الطويل أنّ النية معيار مهمّ لتحديد نوع السلوك ودرجته الأخلاقية ورتبته في سلم الرضا والجزاء الإلهي.

رابعاً: المحبة

إنّ المحبة دعامة مهمة من دعائم الأخلاق الإسلامية، وهي الوعاء الذي يحرص الإسلام أن تستقر فيه أوامره ونواهيه وتشريعاته الأخلاقية ليضمن لها الاستقرار والاستمرار. ومن دون المحبّة تنفذ الأوامر كواجب أو كتكليف ثقيل، لا تلبس النفس الملال منها والتحايل على التهرّب منها.

ومن المعلوم أنّ الإنسان إذا أحبّ شيئاً أسلم نفسه وعقله. وهذا هو السرّ وراء اهتمام الإسلام بتربية وجدان المسلم على الحبّ بسبب ما في هذه العاطفة من أثرٍ خطيرٍ في توجيه السلوك الإنساني وبناء الأسرة والمجتمع والتعاون والإخاء بين الأفراد والأمم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المحبّة عاطفة عمياء، قد تكون في خير وقد تكون في شرّ. ومن هنا اهتمّ القرآن على تنوير المحبّة وتبصيرها، كما يهتمّ بموضوعها.

لقد جعل القرآن الشرعَ معياراً للمحبّة من حيث تبصيرها وتنويرها، ولم يجعل الذات ورغباتها وأهوائها معياراً لها. وساق القرآن أدلة كثيرة في هذا الشأن، منها: قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ (المائدة، 100). وقال تعالى: فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ (النجم، 32)، وقال تعالى: وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ (البقرة، 216)، وقال تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ (النساء، 65)، وقال تعالى: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾(النور، 51).

وقال رسول الله: ((السّمْع والطّاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصيّة، فإنْ أمر بمعصيّة فلا سمع ولا طاعة)) (رواه البخاري)

فالمسلم في علاقته ولو بأقرب الناس إليه، عليه أن يكون معيار ميله وحبّه إلى الحقّ لا إلى الذات. فعلى حين، نرى قانون نابوليون مثلاً يحرم على الإبن الشهادة ضدّ أبيه وأمّه مراعاةً لصلة الرحم بينهما (موسى، 1942). فالقرآن على العكس من ذلك، حيث دعا الفردَ أن يكون ولاءه وحبّه الوحيد لله وللحقّ في كلّ الظروف، فقال تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ (النساء،135).

وتجدر الإشارة بأنّ على الرغم أن القرآن يحثّ على الطاعة للوالدين، إلاّ أنّه يسقط تلك الطاعة حينما تعارضت مع الولاء للحق، حيث قال تعالى: وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ

وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ١٥ (لقمان، 15).

وقد لخّص رسول الله هذا المعيار الضابط لعاطفة الحبّ وتبصيرها في قوله: (لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق) (صحيح الجامع، رقم ،7520حكم الحديث: صحيح) (الألباني، 2016).

وفي جانب آخر، ربط القرآن المحبّة من حيث موضوعها بمثل عليا، تتجلّى فيها كلّ صفات الكمال، حتّى يتّسع معنى الحبّ في قلب المسلم ويسمو ليشمل الكون كلّه، وبهذا تتطهّر نفسه من الأنانيّة والهوى وحبّ الذات، وهي رذائل تهوي بالإنسان إلى أفق البهائم، وتولد فيه الحقد والكراهية والأنانية.

فحينما ينظر الفرد إلى اشياء بمعياره الذاتي ومصالحه الشخصية المحدودة، أحبّ ما يوافقه ولو لم يوافق غيره أو الحقّ وكره ما يخالفه ولو وافق غيره أو الحقّ. وبهذا يصبح أنانيّاً فظّاً غليظ القلب حقوداً يدمّر نفسه ويدمّر ما حوله.

ولهذا، ركّز القرآن تركيزاً شديداً على موضوع الحبّ الذي لا يجب أن يكون شيئاً آخر غير حبّ الله ورسوله. وقد اتّضح هذا المعنى بجلاءٍ في قوله تعالى: قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ٢٤ (التوبة، 24).

وقد حسم رسول الله هذا الأمر حينما جعل حبّ الله وحبّ رسوله معياراً للإيمان، حيث قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما)(الجامع الصحيح، رقم الحديث 15، حكم الحديث: إسناده صحيح)، (البخاري، 2012).

حينما يتّخذ القلوب المثل العليا موضوعاً لحبّها، فمن الطبيعي أن تسود المحبّة والإخاء والتعاون، ويعلو صوت الحقّ والواجب بين الناس، وينفسح الطريق أمام الفرد والجماعة إلى الخير والسعادة. وعكس ذلك، حينما يتّخذ القلوب الأهواء والمصالح الشخصية موضوعاً لحبّها، تسود الكراهية ويتأصّل الحقد والصراع بين الناس، وتنسدّ طرق الخير والسعادة، ويصبح الإنسان شقيّاً بائساً وتعيساً (Gibb: 1961).

هذا هو حكم الله وآياته في خلقه، حين يقول: وَٱلۡعَصۡرِ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ٣ (العصر:3-1).

هذه هي أهمّ المعايير التي تضبط وجدان المسلم، التي يجب أن تكون دليلاً تهتدي به إرادته نحو تحقيق غايته في الخير والسعادة.

٦. الخاتمة

في ختام هذه الدراسة تبين أن القرآن يتحدث عن الأخلاق باعتبارها ما يجب أن نفعله لنكون أخياراً فضلاء ننعم بالسعادة، ويتحقّق بالعمل والتطبيق، وطبيعتها عمليةٌ، فهي أمر واجب النفاذ فوراً، ومعيارها الصحيح هو الوحي، وليس العقل ولا العادة. بينما معيارها الاعتقادي الذي يضبط وجدان المسلم هو التوحيد، والتوكّل، والنيّة، والمحبّة.

المراجع

ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري مجد الدين أبو السعادات. (١٩٦٣). النهاية في غريب الحديث والأثر. د.ط. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين. (١٩٧٩). معجم مقاييس اللغة. د.ط. بيروت: دار الفكر.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أبو عبد الله شمس الدين .(2003) .مدارج السالكين. د.ط. بيروت: دار الكتاب العربي.

ابن مسكويه. (٢٠١٥). تهذيب الأخلاق. د.ط. دولة الإمارات العربية المتحدة: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

الألباني، محمد ناصر الدين. ٢٠١٢ م. صحيح الجامع الصغير. د.ط. دمشق: المكتب الإسلامي.

البخاري، محمد بن إسماعيل. ٢٠١٢ م. الجامع الصحيح. القاهرة: دار التأصيل.

بدره اي، فريدون.(١٩٩٩) .مترجم. مفاهيم اخلاقى—دينى در قرآن مجيد. د.ط. تهران: فرزان .

بدوي، السيد محمد.(١٩٦٧) .الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع. د.ط. القاهرة: دار المعارف.

الجابري، محمد عابد.(٢٠٠١) .العقل الأخلاقي العربي. د.ط. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية

دراز، محمد عبد الله.(١٩٧٣) .دستور الأخلاق في القرآن: دراسة لنظام الأخلاق النظرية والعملية في القرآن الكريم مقارنًا بالنظريات القديمة والحديثة، تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين: مراجعة السيد محمد بدوي. د.ط. بيروت: مؤسسة الرسالة

الراغب الأصفهاني. (٢٠٠٩). مفردات ألفاظ القرآن. د.ط. بيروت: دار القلم.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (٢٠٠٣). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان. د.ط. الرياض: مكتبة الرشد.

الشرقاوي، محمد عبد الله. (١٩٨٨) .الفكر الأخلاقي: دراسة مقارنة. د.ط. القاهرة: مكتبة الزهراء.

طنطاوي، محمد سيد. (١٩٩٧). التفسير الوسيط للقرآن الكريم. د.ط. القاهرة: مكتبة نهضة مصر.

عطية، أحمد عبد الحليم.(١٩٩٠) .الأخلاق في الفكر العربي المعاصر: دراسة تحليلية للاتجاهات الأخلاقية الحالية في الوطن العربي. د.ط. القاهرة: دار الثقافة.

الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام .(1963) .إحياء علوم الدين. د.ط. بيروت: دار ابن حزم.

القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر أبو عبد الله. .(2006) الجامع لأحكام القرآن. د.ط. بيروت: مؤسسة الرسالة.

القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر أبو العباس شهاب الدين .(2004) .المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. د.ط. بيروت: المكتب الإسلامي.

موسى، محمد يوسف.(١٩٤٠) .في تاريخ الأخلاق. د.ط. القاهرة: مطبعة أمين عبد الرحمن.

موسى، محمد يوسف .(١٩٤٢) .فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية. د.ط. القاهرة: مطبعة الرسالة.

موسى، محمد يوسف .(١٩٤٣) .مباحث في فلسفة الأخلاق. د.ط. القاهرة: مطبعة الأزهر.

Darāz, Mohamed A. Robinson Danielle & Masterton Rebecca. (2008). *The Moral World of the Qurʾān*. London: I.B. Tauris.

Fadlo, Hourani George. (1980) '"Ethical presuppositions of the Qurʾān" ' 70 *The Muslim World* : 1 -28 .

Gibb, H. (1961) '"Book review: God of Justice, a Study in the Ethical Doctrine of the Qur'ān" ' 51 *The Muslim World* : 140 -143 .

Hadi, Al-Shamma Salih. (1959). *The Ethical System Underlying the Qurʾān: A Study of Certain Negative and Positive Notion*. Tübingen: Hopfer.

James, Robson (1961). '"Book Review: The Structure of the Ethical Terms in the Koran" ' 6 *Journal of Semitic studies* : 285 -287 .

John, Burton. (1968) '"Book Review: Ethico-Religious Concepts in the Qurʾān" ' 31 *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* : 391 -392 .

Kevin , Reinhart A. (2002). '"Ethics and the Qurʾān" ', in Jane Dammen McAuliffe (ed), *Encyclopaedia of the Qurʾān*. Washington: Georgetown University, 55 -79 .

Majid , Fakhry. (1991). *Ethical Theories in Islam*. Leiden E. J. Brill.

Mariam , Attar. (2010). *Islamic Ethics: Divine Command Theory in Arabo-Islamic Thought* . New York : Routledge

Salahaddin , Ayaz. (1983). *Kur'an da dini ve Ahlaki Kavramlar* . Istanbul: Pinar Yayinlari.